النثر الفني في القرن الرابع
لزكي مبارك بين الأصل الفرنسي والطبعة العربية
Artistic Prose in the Fourth Century by Zaki Mubarak between the French Original and the Arabic Edition

إبراهيم عوض *
Ibrahim_awad9@yahoo.com

الملخَّص:

من المعروف أن بعض الدارسين المصريين الحاصلين على درجة الدكتوريّة من جامعات أجنبية، قد تُرْجِمَتْ رسائلهم العلمية إلى العربية إما بأيديهم أو بأيدى غيرهم.

ويدخل د. زكي مبارك ضمن هذا الصنف الأخير برسالته التي أحرز بها درجة الدكتورية من جامعة باريس سنة 1931م، وعنوانها:

(La Prose Arabe du IVe Siècle de l' Hégire)، وقد نشرتْ له رسالتَه الفرنسيةَ المكتبةُ الشرقية والأمريكية بباريس في العام نفسه الذي أحرزها فيه، ثم نقلها هو بنفسه إلى لغة الضاد ناشرًا النسخة العربية في مصر من خلال المكتبة التجارية بالقاهرة بعنوان (النثر الفني في القرن الرابع) عام 1934م. وفي هذا المقال مقارنة بين الأصل الفرنسي لتلك الرسالة وطبعتها العربية.

* أستاذ بكلية الآداب – جامعة عين شمس – القاهرة.

وما نرصده في هذه المقارنة هو التفاوت الكبير بين عدد الصفحات في الأصل وفي النسخة العربية، والفرق في العنوان بين النسختين، وما أضافه المؤلف للطبعة العربية لم يكن موجودًا في الأصل الفرنسي.

الكلمات المفتاحية: النثر الفني؛ القرن الرابع؛ زكي مبارك.

Abstract:

It is known that some Egyptian scholars who hold doctoral degrees from foreign universities have had their scientific theses translated into Arabic, either by themselves or by others.

Dr. Zaki Mubarak is among this last category with his thesis entitled (La Prose Arabe du IVe Siècle de l'Hégire) by which he obtained a doctorate degree from the University of Paris in 1931. His French thesis was published by the Oriental and American Library in Paris in the same year in which he obtained it. Then he himself translated it into Arabic publishing the Arabic version in Egypt through the Commercial Library in Cairo under the title (Artistic Prose in the Fourth Century) in 1934 AD.

This study compares the French original of that thesis and its Arabic edition. What we observe in this comparison is the large discrepancy between the number of pages in the original and in the Arabic version, the difference in the title between the two versions, and what the author added to the Arabic edition that was not present in the French original.

Keywords: Artistic Prose, Fourth Century, Zaki Mubarak.

مقدمة:

من المعروف أن بعض الدارسين المصريين الحاصلين على درجة الدكتوريّة من جامعات أجنبية، قد تُرْجِمَتْ رسائلهم العلمية إلى العربية إما بأيديهم أو بأيدي غيرهم. ومن هذا الصنف الأخير رسالة طه حسين عن ابن خلدون؛ إذ ترجمها محمد عبد الله عنان من الفرنسية، ورسالة د. محمد حسين هيكل، التي ترجمها ابنه أحمد هيكل من الفرنسية أيضا، ورسالة د. عبد القادر القط، وقد نقلها ابن أخيه د. عبد الحميد القط من الإنجليزية. أما الصنف الأول فأذكر منه د. محمد عبد الله دراز صاحب رسالة (الأخلاق في الإسلام)، ود. محمود رفعت الشهابي، الذي نقل رسالته الحاصل بها على الدكتورية من جامعة أكستر في موضوع (زكي مبارك– دراسة نقدية)، وكذلك كاتب هذه السطور الذي حصل على الدكتوريّة من جامعة أوكسفورد في موضوع (النقد القصصي في مصر منذ بداياته حتى 1980م)، وترجم رسالته غِبّ حصوله على الدرجة المذكورة في أواخر يوليو 1982م.

ويدخل د. زكي مبارك ضمن هذا الصنف الأخير برسالته التي أحرز بها درجة الدكتورية من جامعة باريس سنة 1931م، وعنوانها:

(***La Prose Arabe du IVe Siècle de l' Hégire***)،

وهي الرسالة التي حصل بها على الدرجة المذكورة للمرة الثانية، ثم شفعها برسالة أخرى حصل بها للمرة الثالثة على ذات الدرجة مستحقا بكل جدارة أن يطلق عليه: (الدكاترة زكي مبارك).

وقد نشرتْ له رسالتَه الفرنسيةَ المكتبةُ الشرقية والأمريكية بباريس في العام نفسه الذي أحرزها فيه، ثم نقلها هو بنفسه إلى لغة الضاد ناشرًا النسخة العربية في مصر من خلال المكتبة التجارية بالقاهرة بعنوان (النثر الفني في القرن

الرابـع) عـام 1934م. وفيمـا يـأتي مقارنـة بـين الأصـل الفرنسـي لتلـك الرسـالة وطبعتها العربية.

المقارنة بين الأصل الفرنسي والطبعة العربية:

أول شيء نرصده في هذه المقارنة هو التفاوت الكبير بين عدد الصفحات فـي الأصـل وفـي النسـخة العربيـة؛ إذ بينمـا لا يتجـاوز الأصـل الفرنسـي 290 صفحة إذا بالطبعة العربية تزيد على 750، مع العلم بأن عدد كلمات الصفحة الفرنسية يقل عن نظيره في الصفحة العربية. كما أن في بعض مواضع النسخة العربية نقدا شديدا، بل تهكما واخزا موجها إلى المستشرقين، وهو ما تخلو منه الطبعة الفرنسية. وفضلا عن هذا وذاك هناك أحداث وأمور ومراجع في النسخة العربية لم تكن قد حدثت أو ظهرت قبل صدور الأصل الفرنسي، كما هو الحال مثلا في كتابَيْ (ضحى الإسلام)، و(نقد النثر)، اللذين ظهرا عام 1933م.

ليس ذلك فقط، بل إن عدد المراجع في ذيل النسخة العربية يزيد بنسبة 50% عنه في النسخة الفرنسية، علاوة على ما قاله د. زكي مبارك نفسه من أن فـي النسـخة العربيـة حريـة أكبـر وتفصـيلات أكثـر، وإنْ حـدَّد الاخـتلاف بـين النسختين بأنه (اختلاف قليل)، وهو ما أخالفه فيه بقوة، وبخاصة أن الاختلافات المشار إليها لا تقتصر على ما ذكره.

ومن الفروق بين النسختين أن العنوان في الأصل الفرنسي أدق، فهو يحدد النثرَ المدروسَ بأنه (النثر العربي)، كما يحدد القرنَ موضوعَ الدرس بأنه (القرن الرابع الهجري) لا (القرن الرابع) فقط كما في الطبعة العربية التي قد ينصرف فيها ذهن القارئ الخالي من الأمر إلى القرن الرابع الميلادي.

كذلك فقد أعاد المؤلف تقسيم الكتاب من جديد، فبعد أن كان كتّاب القرن الرابع في الأصل الفرنسي مذكورين جميعا مرة واحدة دون تصنيف، اللهم إلا كتّاب المقامات وكتّاب الأخبار والأقاصيص، نجدهم في النسخة العربية قد صُنِّفوا إلى كتّاب النقد الأدبي، وكتّاب الآراء والمذاهب، وكتّاب الرسائل أو العهود، علاوة على كتّاب الفئتين السابقتين. ثم إن المؤلف لم يكتف بهذا، بل أضاف إلى كل طائفة من هذه الطوائف كتّابا آخرين لم يتناولهم بالدراسة في الأصل الفرنسي. ليس هذا فحسب، بل هناك كتّاب دُرِسوا في الطبعة العربية في أكثر من موضع رغم أنهم في الأصل قد لزموا جميعا مكانا واحدا لم يريموه.

وكما أضاف المؤلف إلى الطبعة العربية من كتابه كتّابا لم يكن لهم وجود في النص الفرنسي، كذلك أضاف إلى الطبعة العربية عددا من الموضوعات لم يسبق له أن درسها في ذلك الأصل، وهي الموضوعات التي تضمنتها فصول (الفكاهات)، و(النسيب)، و(الإخوانيّات).

وفي المقابل نجد أن فصل (L'Éloquence au IVe Siècle) وكذلك الفصل الخاص بالخاتمة (Conclusion) قد حُذِفا معا من الطبعة العربية. وبالمثل هناك هوامش كثيرة أضيفت للطبعة العربية لم يكن لها وجود في الأصل الفرنسي، وتتضمن هذه الهوامش شرحا لبعض الألفاظ الصعبة أو إجابة على بعض الأحاجي التي ضمّنها بديع الزمان مقاماته... إلخ.

ومن الفروق كذلك ما دأب عليه المؤلف في بداية كل فصل من فصول الأصل الفرنسي من ذكرٍ لرءوس الموضوعات التي يتناولها في ذلك الفصل، مما لم يجر عليه في النسخة العربية، اللهم إلا في فصول (نشأة النثر الفني)، و(التوابع والزوابع)، و(النقد الأدبي عند ابن شُهَيْد)، و(أبو عامر بن شُهَيْد) ليس إلا.

وثمة فصول وقع عند نقلها إلى العربية تصرف كبير بالزيادة والحذف، والتقديم والتأخير، والإيجاز والتفصيل، كما في فصل (Les Origines de la Préciosité)، الذي أصبح عنوانه بالعربية (نشأة النثر الفني)، والفصل الخاص بالمحسِّن التنوخي الذي يخلو أصله الفرنسي من السطور التمهيدية عن ماسينيون وسنوك، ومن الكلام في صلبه عن مارجليوث وماسينيون، وكذلك التحليلات المطولة والنصوص المقتبسة التي تشغل حيزا كبيرا في النسخة العربية.

ولهذا السبب كان التفاوت الكبير بين عدد صفحات ذلك الفصل هنا عنها هناك، فهو في الأصل الفرنسي لا يبلغ سبع صفحات، على حين أنه في الطبعة العربية يتجاوز الاثنتين والعشرين صفحة. ومن ذلك أيضا أن القصة التي تدور حول أم آسية في النص الفرنسي، وتقع في أربع صفحات، قد اختفت نهائيا من النسخة العربية وحلت محلها حكايات أخرى لا وجود لها في الأصل.

ومن أهم الأسباب التي أدت إلى طول النسخة العربية أن الدكاترة زكي مبارك كان يكتفي، في الأصل الفرنسي في كثير من الأحيان، بتلخيص ما يريد الاستشهاد به من كتابات أدباء القرن الرابع الهجري أو بمجرد الإشارة له، أما في النسخة العربية فلم يكن يرضى بأقل من إيراد النص كاملا. كما أنه في الأصل الفرنسي كان يلجأ أحيانا إلى تقليص النص المستشهد به، على خلاف الحال في النسخة العربية، إذ كان يطيل عندئذ الاقتباس من ذلك النص.

وبالإضافة إلى هذا هناك عدد من الموضوعات والإشارات في النسخة العربية يخلو منها الأصل الفرنسي. مثال ذلك الإشارة إلى حذف الشيخ محمد عبده طائفة من مقامات بديع الزمان لما فيها من الصراحة المفرطة في تصوير الشهوات، وكذلك الإشارة إلى مناقشة دارت بين زكي مبارك ومسيو مرسيه حول ما ذكره الحصري صاحب (زهر الآداب) من أن بديع الزمان إنما عارض

بمقاماته ابن دُرَيْد في أحاديثه الأربعين ولم يخترعها اختراعا، وتعجُّب المستشرق الفرنسي من إجماع الناس مع هذا على أن بديع الزمان هو منشئ فن المقامات. كذلك فإن النص العربي قد يتضمن كلمة هنا أو عبارة هناك لا وجود لها في الأصل الفرنسي.

على أن هناك من الناحية الأخرى أشياء موجودة في الأصل الفرنسي، لم يعد لها وجود في النسخة العربية. من ذلك حديث خُنَافِر الحِمْيَريّ الذي ينيف على الصفحتين، وكذلك الكلام عن عادة التعجيل بدفن الميت والمصائب التي يمكن أن تقع من جَرّاء ذلك؛ إذ من الممكن أن يُدْفَن إنسان وهو لا يزال حيا، بناءً على ظن أهله أنه قد قَضَى نحبه وانتهى أمره.

لكنْ من العجيب أن نجد زكي مبارك في الأصل الفرنسي يشير بملء فيه إلى اعتقاده في أن أحدا لم يسبقه إلى القول بأن أخبار عمر بن أبى ربيعة هي أخبار غير حقيقية، وأنها إنما وُضِعَتْ وضعا لتفسير شعره، ثم نفاجأ بأن هذه الإشارة قد اختفت من الأصل العربي؛ ذلك أن زكي مبارك ليس بالشخص الذي يحاول التضاؤل في مثل هذا الموقف ولو على سبيل التصنع، فقد كانت فيه مباهاة حادة أثارت عليه كثيرا من العداوات، وإن كنت أنا من الذين يُعْجَبون في كتاباته بهذه المخاطرة؛ لأنها تخلو من العنجهية السمجة، ولأنها تظهر في ثوب فني جذاب.

ولكن ما الأسباب التي أدت إلى هذه الاختلافات الهائلة بين الأصل الفرنسي للرسالة وطبعتها العربية، مما بدت معه وكأنها إعادة تأليف لا ترجمة؟

يشرح المؤلف ذلك في المقدمة بأن في النسخة العربية تفاصيل لا يحتاج لها أهل الغرب احتياج المشرقيين، كما أنها تتمتع بحرية أكبر لأن الأصل الفرنسي كُتِب لغرض علمي بحت وتحت إشراف أستاذين صارمين، أما النسخة العربية فوُضِعَت، كما يقول، بغرض التعليم والتثقيف. لكن لا يمكن أن يكون ما

ذكره الدكاترة زكي مبارك هو كل الأسباب التي نتجت عنها تلك الاختلافات الهائلة بين النسختين، وإلا فما دخل الحرية والتقييد مثلا في الفصول الكاملة التي أضيفت إلى الطبعة العربية مما نصصنا عليه آنفا؟

لا شك أن الكتاب في ثوبه العربي قد أضحى أقرب ما يكون إلى الشمول في تغطية الموضوع الذي يتناوله. كذلك ليس من السهل القول بأن القراء الغربيين (أي المستشرقين) يستطيعون أن يستغنوا عما أضافه زكي مبارك من فصول عن بعض كتّاب القرن الرابع ممن لم يتناولهم في الأصل الفرنسي كعبد الكريم، أو الآمدي، أو الحاتمي، أو ابن مسكويه، أو عن التوسع الذي اعترى بعض الفصول في الطبعة العربية كما هو الحال في فصل (أطوار السجع) مثلا.

إن السبب الحقيقي في مثل هذه الزيادات هو تنبه المؤلف، بعد أن هدأت أعصابه وزال توتره بحصوله على الدرجة العلمية، وبعد أن اتسعت معارفه وازدادت قراءاته في التراث الأدبي الذي خلّفه لنا كتّاب القرن الرابع الهجري، إلى أن هناك من الكتّاب والموضوعات ما لا يقل أهمية عما سبق له الكتابة عنه في الرسالة، فضلا عما اعترى بعض آرائه من تطور وتعديل بمرور الوقت.

كذلك هناك أشياء وقعت أثناء مناقشة الرسالة لم يكن من المستطاع بطبيعة الحال إثباتها في النص الفرنسي؛ إذ كانت قد كُتِبت وانتهى الأمر. أما مهاجمة المؤلف لآراء بعض أساتذته من المستشرقين فلم يكن من اللياقة على الأقل أن يفكر في إثباتها في رسالة يُعِدّها تحت إشرافهم، وهذا إن تسامحوا هم أصلا في ذلك، وهو ما أشك فيه. وينضاف إلى هذا ما جَدّ خلال السنوات الفاصلة بين كتابة الأصل الفرنسي وكتابة النسخة العربية من صدور كتب جديدة أو ظهور آراء في الأدب والنقد لم تكن معروفة من قبل ورأي الدكاترة زكي مبارك أنه ينبغي التعرض لها ومناقشتها.

وإذا كان المؤلف قد ذكر في فاتحة الطبعة العربية أن أساتذته في باريس عابوا عليه ظهور النزعة الوجدانية في بحثه، فإن هذه النزعة قد ازدادت بروزا في النسخة العربية؛ إذ أخذ كاتبنا راحته بعيدا عن أعين هؤلاء الأساتذة بعد عودته إلى أرض الوطن. ثم إن كثيرا من النقول التي أوردها كاتبنا في النسخة العربية للاستشهاد بها على بعض السمات الأسلوبية المتعلقة بالمحسنات البديعية لا موضع لها في الأصل الفرنسي. وهذا أمر طبيعي؛ إذ من المستحيل ترجمة هذه المحسنات إلى أية لغة أجنبية.

مما تقدم يتبين لنا أن كتاب (النثر الفني في القرن الرابع) ليس ترجمة للدراسة التي أحرز بها المؤلف درجة الدكتورية من جامعة باريس عام 1931م بقدر ما هي إعادة كتابة لها من جديد!